قراءة في نثر سميح القاسم

يحيى يخلف

الحديث عن سميح القاسم حديث عن مراحل تاريخية مرت بها القضية الفلسطينية على مدى ما يقارب من سبعة عقود، أي منذ النكبة عام ١٩٤٨ حتى تاريخ رحيله، فقد رافق عطاؤه الشعري والنثري كل المحطات التي مرت بها القضية، وعبّر من خلال أعماله عن تحولاتها وتجلياتها.

تاريخ حافل بأحداث تراجيدية رافقت النكبة والكارثة، أبرزها اقتلاع الشعب الفلسطيني ونفيُه وتحوله إلى طوابير لاجئين في دول الشتات، وبقاء أقلية فلسطينية تحت حكم الدولة الصهيونية. هذه الأقلية التي تعرضت لأقسى أشكال القمع والتنكيل، والتي واجهت ذلك بالصمود والتحدي، ومن صفوفها خرجت نخب سياسية وثقافية واجتماعية ناضلت على مدى عقود من أجل حقوقها وهويتها في مواجهة القوانين العسكرية والحكم العسكري، ومواجهة التمييز والعنصرية، ومواجهة مصادرة الأراضي، ومن ثم شكلت حركة وطنية فلسطينية عربية ناضلت من أجل الحقوق والمساواة والسلام، ومن صفوف هذه الأقلية، برز أدباء وشعراء ومبدعون في مجالات الفنون، ومن أبرزهم الشاعر والقاص والمبدع سميح القاسم، فبالإضافة إلى غَلَبة شهرته كشاعر، فقد كان ناثرا، ومن نثره روايتان قصيرتان هما: إلى الجحيم أيها الليلك، والصورة الأخيرة في الألبوم، وكذلك سيرةٌ ذاتية عنوانها: إنها مجرّد منفضة.

لا تقِل عذوبة نثره وبلاغتُه عن عذوبة شعره وبلاغته، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان اهتمام القراء والنقاد بشعره أكثر مما كان بنثره، لذا، رغبت هنا في أن ألقي الضوء على هذا النثر، أو بالأحرى على هذا السرد الجميل الذي يدعو الى الإعجاب، ويغري بالتأمل.

سميح القاسم من جيل النكبة، فقد وطنه وهو في سن العاشرة، حفرت المأساة عميقا في مخزون ذاكرة طفولته حتى إن أحداثها وحكايا الإنسان -حنينَه وأنينَه- رافقته في مسيرته الإبداعية، وكتب عن شخصيات أوردها في مذكراته وأعاد إحياءها، ومنها الطفلة التي صادقها في طفولته وعقد معها صداقة مفعمة بالبراءة، ثم رحلت مع أسرتها الى المنافي وهي تلبس ثوبا بلون الليلك، وصار الليلك بالنسبة إليه يرمز للغربة والرحيل والاقتلاع والنفي، وأوحت الطفلة له بروايته القصيرة "الى الجحيم أيها الليلك". كما أن الفتى الكسيح الذي تخلى عنه أهله لأنه من الأفواه اللامجدية، ولانه لا يتقن المشي معهم وهم في طريقهم الى المنفى؛ أعاده الى الرواية سليما معافى بثياب فدائي، وظل يغمس ريشته بمداد مأساة شعبه وكبوته ونهوضه، وأنضجت النكبة، كحدث ومظلمة، وعيه الوطني والثقافي، لذا عندما تمكّن ونبغ، اختار المتراس منصة، والميدان موقعا، والتصدي والصمود نهجا.

* * *

عاش زمن النكبة تحت الحكم العسكري، وذاق منذ شبابه المبكر مرارة العسف والقوانين العسكرية الجائرة، فتعرض مرات عديدة للملاحقة والإقامة الجبرية والاعتقال والطرد من الوظيفة والحصار المفروض على ابناء شعبه، فقاوم بالكلمة كما قاوم في الميدان، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر رفضُه ومقاومته لمحاولة تجنيده للخدمة العسكرية في جيش الاحتلال، فقد رفض التجنيد، وأسس مجموعة شبابية من الشباب الدروز الأحرار لرفض التجنيد، ومن ثم تمأسست وصار لها شأن وتحمل الآن اسم: لجنة المبادرة الدرزية.

وعودة للحديث عن نثره، نختار كتابه: إنها مجرد منفضة، ونتوقف عند هذه الوثيقة المهمة لسيرته الذاتية، التي اعتبرها مرجعا ومصدرا لسيرته وشهادة صادقة على تاريخ لا يستطيع الدارس لأدب سميح وشعره وأدب وشعر الحركة الثقافية الفلسطينية في الداخل أن يتجاهله كمصدر أساس من مصادر دراسته أو بحثه.

سيرته الذاتية التي صدر الجزء ما قبل الأخير منها في العام ٢٠١١ هي سجل لحياته الحافلة، هي نص إبداعي، وسرد خاص وسرد عام، سردان يلتقيان ولا ينفصلان، وإضاءةٌ على قصائده والظروف التي كتبت فيها، وإضاءة أيضا على بعض شخوص روايتيه: إلى الجحيم أيها الليلك، والصورة الأخيرة في الألبوم.

لم ينفصل الإبداع عن بيئته ومحيطه وما يمر به شعبه من محن، ففي سيرته الذاتية هذه يقول:

(أنت لا تؤمن بفصل الإبداع عن الحياة، لا تؤمن بتجزئة التجربة، أنت تؤمن بعضوية العلاقة بين القصيدة والبيئة، الخاص والعام، الذاتي والاجتماعي، ولن تكون كتابتك عن ذاتك أقرب إلى الصدق ما لم تكن أقرب الى الكون والبشرية).

ويتساءل بعد ذلك: (من أين تبدأ هذه المذكرات: قد تكون قصيدتك الأولى التي كتبتها بين عاميك الثالث عشر والرابع عشر بداية جيدة، وقد تكون محاولة اغتيالك وأنت طفل يبكي في قطار مع أفراد اسرته بداية أفضل، وقد تكون محنة طفولتك في العام ١٩٤٨- عام النكبة، الأساسَ المتين لسيرتك، ولماذا لا تبدأ بشجرة العائلة التي وثّقها ابن عمك الراحل الدكتور أديب فريد قاسم محمد الحسين؟ وعلى فكرة، لماذا لا تبدأ بتجربة الاعتقال الأولى عام ١٩٥٨ أو بالمجموعة الشعرية الأولى (مواكب الشمس) التي صدرت في العام نفسه.. إلخ).

سنقرأ في هذه المذكرات تفاصيلَ حيّة عن تجليات تراجيديا عاشتها تلك الأقلية تكمل الوجه الآخر لمأساة اللجوء والشتات خارج الوطن. وقد بقيت مأساة الأقلية مجهولة بسبب التعتيم الناجم عن عزلتها وانقطاع تواصلها مع محيطها القومي، غاب كثير من تفاصيل المعاناة، وتفاصيل بطولة الصمود والتحدي وما رافقها من إبداع المبدعين من الشعراء وكتاب القصة والمسرح.. ظل هذا التعتيم والتجاهل إلى أن ألقى الضوء عليها غسان كنفاني في كتابه (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) الذي نشر عام ١٩٦٦، فكانت المفاجأة المدوية، إذ اكتشفت الأمة العربية جزءا أصيلا من الشعب الفلسطيني ومبدعيه كان مغيّبا، من شعب تجذّر في أرضه وخاض صراع البقاء، وصنع أدبا وثقافة وحركة وطنية دون أن تلحظ ذلك الشعوب العربية ونخبها، ودون أن يسلط عليها الضوء.

قام غسان كنفاني بمغامرة وطنية جسورة، وفي ذلك يقول محمود درويش: (بقينا مجهولين إلى أن قام غسان كنفاني بعمليته الفدائية الشهيرة: الإعلان عن وجود شعر في الأرض المحتلة داخل إسرائيل، فانقلبت العلاقة داخل الأرض المحتلة وخارجها).

ويقول أيضا: (كان اكتشاف العالم العربي أنّ العرب في فلسطين المحتلة يتكلمون اللغة العربية، ويحبون بلادهم، ويكرهون الظلم؛ اكتشافا مذهلا.. مذهلا حتى الخزي).

وبصدور كتاب غسان كنفاني (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) عام ١٩٦٦، وكتابه الثاني (الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال) عام ١٩٦٨، انتشر مصطلح (أدب المقاومة) كظاهرة ثقافية

فلسطينية، وظاهرة في المشهد الثقافي العربي.

ويعود الفضل لكنفاني في التعريف بالشعراء محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وراشد حسين، وحنّا أبو حنّا، وسالم جبران، وسواهم، وكذلك على كتاب القصة والرواية، ومنهم إميل حبيبي، وتوفيق فيّاض.

وقد أعقب هذا الاكتشاف احتفاءٌ عربي عبّر عن حب جارف لهذا الأدب، أتاح نشره وتعميمه ومكّن من كسر العزلة، وأوجد الحافز للتجويد والتطوير لدى المبدعين، والأهم، ربط شكلا من التواصل مع المحيط القومي.

ومن هنا، تكمن أهمية ما سجله سميح القاسم في مذكراته أو سيرته الذاتية عن مرحلة أعقبت النكبة واكتنفها عزلة وتعتيم، واتسمت بممارسات قمعية إسرائيلية تحت قوانين عسكرية أثخنت الضحية بالجراح، جرت في العتمة دون وجود إعلام وكاميرا وفضائيات ووسائل تواصل مثلما هو الحال في هذه الأيام.

سنجد تفاصيل حزينة ومذهلة عن رعشة الإنسان في زمن الحرب عام ٤٨ عشية النكبة، عندما كانت العصابات الصهيونية ترتكب المجازر بحق المدنيين العزل في المدن والقرى، وتدفع الناس في أجواء الصدمة والرعب إلى الهرب من الموت والنزوح من ديارهم الى دول الجوار، وكيف عاشت عائلته في تلك الأجواء بمساحة التردد بين البقاء أو الفرار.

وحول ذلك يقول: (ترددت في بلدنا –الرامة– أنباء عن مجزرة دير ياسين، وأخرى عن فظائع أخرى كثيرة، وتدفق على الرامة عدد من اللاجئين، وقطعت معظم الطرق الرئيسة في البلاد).

ويقول: (تذكر أنّ طائرة يهودية أغارت على قريتك وألقت القنابل على منزل قريب فهدمته، وساد الهرج والمرج، والزعيقُ الهستيري، وتراكض الناس للاحتماء من قنابل اليهود.. صبيحة اليوم التالي، قرر أهل الرامة إخلاء القرية، قلة منهم غادرت البلاد، لكن الأغلبية الساحقة قررت اللجوء إلى كروم الزيتون).

ويضيف: (أصبح الخطر الداهم أكثر إلحاحا، جاء عمّك علي من دمشق محاولا إقناع العائلة بالرحيل إلى هناك، وترددت العائلة في الأمر، لكن الذي حسم الموقف لصالح البقاء في الوطن هو المرحوم الشيخ حسين علي أسعد الحسين الذي قرر بلا هوادة: الموت في الوطن ولا الحياةُ في الغربة، لا نغادر

هذه الأرض الاّ إلى الدنيا الآخرة).

هكذا صمدت قرية الرامة وبقيت بسكانها العرب من دروز ومسيحيين قرية عربية جليلية، وشوكةً في حلق الاحتلال كغيرها من القرى والمدن التي صمدت فيها الأقلية العربية، وبعد سنوات ثلاث، ورغم القمع والتنكيل، أطلقت هذه القرية ثورة عرفت بانتفاضة الزيتون عندما تصدى أهلها لقوات الجيش والشرطة الإسرائيلية التي اقتحمت القرية لمصادرة غلة موسم الزيت والزيتون، ووقع جرحى واعتقالات لأبناء البلدة من مسيحيين ودروز، فقدم أهل الرامة نموذجا لوحدتهم، وأطلقوا صيحة مدوية عن بطولة البقاء.

ولا يتردد سميح القاسم القومي العربي الذي ينتمي للطائفة الدرزية عن سرد تاريخ كفاح عائلته التي تعيش في الرامة والقرى المجاورة لها، وتعود جذورها إلى جدها الأول خير محمد الحسين الذي تقول أوراق العائلة إنّه كان من فرسان الموحدين الذين أبلوا بلاء حسنا تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين.

كما يتحدث عن تاريخ رجالاتها في الحقبة العثمانية وحقبة الانتداب البريطاني، ويخلص إلى وضعها في حقبة الاحتلال الاسرائيلي، حيث حاولت السلطات الاسرائيلية عزل الطائفة الدرزية وضمها الى الأقليات الصغيرة كالبدو والكاثوليك والشركس، بهدف زرع التفرقة الطائفية، وفرض الخدمة العسكرية الإلزامية عليها وعلى تلك الطوائف، ما دفعه الى تشكيل تجمع شبابي لرفض الخدمة العسكرية ومقاومتها.

وفيما يتصل بميوله الأدبية المبكرة وهو في المدرسة الابتدائية، يذكر في مذكراته أن ذلك بدأ بانخراطه في جوقة الإنشاد التي أسسها المعلم سليم الذي علّمهم أناشيد وطنية منها (موطني) و(بلاد العرب أوطاني) وغيرهما، ثم انضم إلى الفرقة المسرحية، وعنما كان في الصف السابع، كتب في درس الإنشاء نصا وردت فيه مقاطع شعرية من تأليفه موزونة ومقفاة، ويومها أعلن معلم اللغة العربية إلياس الحزوري عن وجود شاعر في الصف هو الطالب سميح القاسم. ليلتها قرر أن يكتب قصيدة أخرى ولكنه لم يفلح، وأخبر في اليوم التالي معلمه عما حدث له، فداعب المعلم شعره وقال له: لا تذهب إلى القصيدة يا بني، دعها هي تأتي إليك، وستأتي.. لا تقلق.

وسيخبرنا سميح بعد ذلك أن كلمة معلم اللغة العربية هذه كانت الدرس الأول في النقد الأدبي

الذي تعلّمه في طفولته وطفولة قصيدته، وكانت عبرة له طيلة حياته اللاحقة.

وبدأ مشوار سميح بالتردد على النوادي التي تقيم أمسيات وندوات شعرية، وفي الوقت نفسه يكتب محاولاته الأولى في الغزل الموجه للصبايا، والهجاء الموجه لطلبة ومعلمين، ويقول إنّ الأستاذ المحبب لديه ألقى القبض عليه متلبسا بالغزل والهجاء فقال له: يا بني، لديك موهبة ممتازة، فلا تضيّعها على هكذا مواضيع.

بعد تخرجه من المدرسة الثانوية، التحق بسلك التعليم معلما في المدارس الابتدائية، وفي هذه المرحلة، نضج وعيه السياسي والثقافي، فبدأ ينشر القصائد الوطنية التي تدعو إلى الصمود والحفاظ على الهوية، وينتقل من قرية لأخرى، وتم إيقافه عندما دعي للمشاركة في مهرجان شعري أقيم في بلدة كفر ياسيف عام ١٩٥٨، وأُبعد إلى بلدة دالية الكرمل، وبسبب مواقفه الوطنية، فصلته سلطات الاحتلال من وظيفته تزامنا مع صدور ديوانه الثاني (أغاني الدروب).

عانى سميح من البطاله فترة طويلة، وفي تلك الأيام، كتب قصيدته المشهورة (خطاب من سوق البطالة) التي عرفت فيما بعد باسم (سأقاوم):

ربما تسلبني آخر شبر من ترابي

ربما تطعم للسجن شبابي

ربما تسطو على ميراث جدي

من أثاث وأوان وخوابي

ربما تحرق أشعاري وكتبي

ربما تطعم لحمي للكلاب

يا عدو الشمس.. لكن لن أساوم

وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم

وبعد ذلك عمل في الصحافة، عمل في صحيفة (الغد) التابعة لشبيبة الحزب الشيوعي، ثم في صحيفة (هذا العالم) التابعة للصحافي المناصر للعرب (أوري أفنيري)، ثم التحق للعمل في صحف الحزب الشيوعي عندما دعاه توفيق طوبى أحد قيادات الحزب ومن كبار الشخصيات الوطنية في الوسط

العربي، للعمل في صحيفة (الاتحاد) دون إلزامه بالالتحاق بعضوية الحزب، وشغل بعد ذلك رئاسة تحرير مجلة (الجديد) الثقافية التي لعبت دورا كبيرا في إثراء الحياة الثقافية، وقد شارك معه في تحريرها: محمود درويش، وصليبا خميس، وتوفيق زيّاد.

لقد انتمى سميح بعد ذلك لعضوية الحزب الشيوعي وللجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة التابعة له، وترشح على قوائمه لعضوية المجلس المحلي في بلدة الرامة، إلاّ أنّه اختلف فيما بعد مع بعض القيادات التي لم تتفهم أفكاره ومواقفه القومية، وآراءه بعد حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣، واتهم بالتعصب القومي والشوفينية، ما دفعه إلى الانسحاب من الحزب، وعلى الرغم من ذلك، فقد قيّم الحزب في مذكراته تقييما نزيها، وفي ذلك يقول: (صحيح أنك اختلفت مع أفراد من قيادة الحزب، لكنك رفضت جميع الإغراءات لتحويلك عدوّا لهذا الحزب.. صحيح أنك اختلفت مع بعض قيادات الحزب، لكنك تعرف برنامج هذا الحزب الذي كان أول إطار سياسي بعد النكبة يرفع شعار حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني، وحمى اللغة العربية والروح العربية من دعاوى مسح الذاكرة وإلغاء الهوية وطمس الوجود القومي والوطني والإنساني).

* * *

من المحطات المهمة في مسيرة سميح القاسم في أواخر الستينات من القرن الماضي مشاركته ومحمود درويش ضمن وفد من شبيبة الحزب الشيوعي في مؤتمر الشباب العالمي الذي انعقد في صوفيا عام ١٩٦٨، وعلى الرغم من النقد الذي وجهه بعض (القومجيين) لهذه المشاركة، إلاّ أن الكثير من الوفود والشخصيات المشاركة رحبت بهما، كما التقيا بالشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يغادر فيها سميح البلاد، والمرة الأولى التي يخرج فيها إلى العالم، وفيما بعد، أتيح له أن يسافر إلى مختلف دول العالم ويتزود برؤى جديدة، ويلتقي أدباء وشعراء من العالم العربي ومختلف الدول.

لقد أحب السفر والتواصل الثقافي ونشر أشعاره في عمق الضمير والوجدان القومي والإنساني، فكان بمثابة سفير للقضية الفلسطينية بقدم أوراق اعتماده للضمير الإنساني والأخلاقيات العالمية.

* * *

ولعلّ أبرز ما يميّز هذه المذكرات التي حواها كتاب (إنها مجرد منفضة) الرشاقة، وخفة الظل،

والمتعة الفنية. ومن يعرف سميح القاسم، يعرف أن ذلك ميزة من ميزات شخصيته. والكتاب مليء بطُرف وتعليقات تمنح النص المزيد من المتعة والعذوبة، ونستطيع هنا أن نذكر مثالا أو مثالين عن سرعة البديهة عنده من النص التالي: (بعد قرابة الشهر تقريبا على ميلاد ابنك البكر –وطن محمد- كان عليك أن تلقي محاضرة في الولايات المتحدة عن العرب في إسرائيل، في إطار مؤتمر الخريجين الجامعيين العرب الأميركيين. جاء في محاضرتك المكتوبة: عدد العرب في إسرائيل اليوم هو نصف مليون. ثم استدركت وقلت: آسف.. عدد العرب نصف مليون وواحد، فقد ولد ابني محمد أيضا. وضحك الجمهور اللبيب وصفق طويلا).

ولا بأس من أن نقتبس مثالا آخر في هذا السياق، إذ يقول: (ذات يوم، رافقك ابن عمك وجارك وصديقك د. نبيه القاسم لتهنئة الكاتب اليساري الإسرائيلي عاموس كينان لتهنئته بمولد طفلته البكر.

سألت عاموس كينان: وما الاسم الذي منحتموه للمولودة السعيدة؟

فردّ عاموس: أنت تعلم أنني طيلة حياتي وأنا أناضل من أجل السلام، لذلك أطلقت على طفلتي الأولى هذه اسم: شلوم تسيون.

فوجئت بالشطر الثاني من هذا الاسم المركّب -شلوم تسيون تعني سلام صهيون- شعرت بالتواء في أعماقك، فقلت وعيناك تطيران عبر النافذة: أنا سأتزوج قريبا يا عاموس، وسأنجب ولدا أسمّيه وطن محمد وفهم عاموس كلامي).

لقد مزج السخرية بالجد، كان ردا بليغا على كاتب يساري يدّعي مناصرة العرب، ويدّعي أنه يقف إلى جانب السلام، ولم يكن رد سميح مجرد كلام عابر، وإنما أكد ما يعنيه عندما سمّى ابنه البكر فعلا (وطن محمد) أي وطن العرب.

وهنا لا أريد أن أطيل في استعراض سيرته ومواقفه وعلاقاته التي نسجها مع كبار الأدباء العرب ومع شخصيات وزعماء، وما قدمه من إضاءات وإبداع في مذكراته، وحسبي أنني ألقيت الضوء على مراحل مبكرة من حياته الحافلة، وعلى شيء من مواقفه التي تطابقت مع ممارساته، إذ قرن القول بالعمل، والتنظير بالممارسة.. وما ذكرته لا بد أن يغري المستمع باقتناء وقراءة هذه السيرة التي عنونها بـ: إنها مجرد منفضة.

ولعل سائلاً يسأل عن دلالة ومغزى العنوان، ولماذا لم يختر عنوانا شاعريا مثلما فعل بابلو نيرودا مثلا عندما عنون سيرته بـ (أشهد أنني قد عشت).

لن نذهب في تخمينات واجتهادات، فقد شرح لنا دلالة العنوان في نهاية السيرة إذ قال (ما الجسد إلاّ منفضة لرماد نار الشعر، وما نار الشعر إلاّ منفضة لرماد نار الحياة، وما الحياة الدنيا إلاّ منفضة لرماد نار الجسد)، ومن الطبيعي أن يعنون شاعر فلسطيني عاش أعوامه السبعين تحت سقف النار بمثل هذا العنوان الواقعي، ولم يعش تحت رفاهية ورغد العيش كما بابلو نيرودا الذي كانت نهايته على كل حال بطولية.